المحكي الشعبي والذاكرة التاريخية

Folk narrative and historical memory

دليلة مكسح*

جامعة باتنة 1 (الجزائر)

Dalila.meksah@univ-batna.dz

تاريخ الارسال: 2022-01-30	تاريخ التقييم: 2022-04-08	تاريخ القبول: 15- 06- 2022

الملخص:

يعد المحكي الشعبي مصدرا مهما من المصادر الشفوية التي تُحفظ بها ذاكرة الأجيال، لما له من مقدرة على تناقل الأخبار والحقائق، ولكن وفق قوالب حكائية خاصة، الهدف منها جذب المتلقي، وترسيخ الأحداث التاريخية في ذاكرته، ويهدف هذا البحث إلى المقارنة بين الأحداث الحقيقية، وكيفيات تشكلها عبر عملية الحكي الشعبي، وانعكاساتها على الذاكرة التاريخية.

كلمات مفتاحية: المحكي، الشعبي، الذاكرة، التاريخ.

Abstract:

The popular narrative is an important source of oral sources in which the memory of generations is preserved, because of its ability to transmit news and facts, but according to special story templates, the aim of which is to attract the recipient, and consolidate historical events in his memory. Formed through the process of folk tales, and its reflections on historical memory.

Keywords :Spoken, folk, memory, history.

* المؤلف المرسل

1.مقدمة:

لاذ الإنسان منذ القدم إلى الحكي، ليحقق حاجات كثيرة يخط من خلالها مسيرته في الحياة، ولم تكن له إمكانية حفظ ذاكرته وتاريخه من غير ممارسة مستمرة للحكي، تتناقل عبره الأجيال مآثر سابقيها، ومنجزاتهم المادية والمعنوية، وتربط الماضي بالحاضر والمستقبل، عبر سيرورة حكائية لا تنضب، ولكل أمة محكياتها الخاصة حقيقية كانت أم زائفة، تلك

المحكيات التي تتشكل في الماضي، وتمتد إلى الحاضر، وتتطلع نحو المستقبل في تشاكل وتباين، ينبئ عن ضرورة الحكي في الحياة، وحاجة الإنسان الملحة إلى تأثيث وجوده بالحكي عن ذاته في فعلها وفي تطلعاتها.

والثورة الجزائرية بأحداثها التاريخية، لم تكن لتحفظ لولا تلك المحكيات التي تراكمت في يوميات الجزائري، وهو يعاني بشاعة الاستغلال، ويسام في كرامته ووجوده، وفي اللحظة التي كان يصنع فيها التاريخ، كان في الآن نفسه يحكي ذلك التاريخ، سواء عن طريق التأريخ الأكاديمي العلمي، أو عن طريق حكي يجمع بين الواقعي والمتخيل، وهو ما يجعل هذه العملية مثار أسئلة تتعلق بمدى أهمية المحكي الشعبي بعامة؟ وطبيعة الأبعاد التي يحويها؟ والرواسب التي يمكن اكتشافها فيه؟ وكيف يمكن تمثله في الحاضر والحفاظ عليه؟

وقد يرى البعض أن المحكي الشعبي القائم على التخييل لا فائدة منه، فهو مجرد سرد زائف يضر أكثر مما ينفع، ولكن الحقيقة التي لا يمكن التغاضي عنها، أن هذا المحكي يستحضر أبعادا لا يمكن للمؤرخ أن يلتفت إليها، بحكم تركيزه على الجانب الموضوعي لا المتخيل، وهو ما يغيب عنه رؤية الرواسب النفسية والفكرية الكامنة في الذات الجمعية، أما المحكي الشعبي فيحفظها، وينقلها طازجة إلى الأجيال اللاحقة، وهو ما تهدف إليه هذه الدراسة من حيث التنويه بقيمة المحكيات الشعبية، وبيان فوائدها التأريخية، والنظر في الإمكانيات النفسية والثقافية والاجتماعية الناتجة عنها، متبعين في ذلك منهجية تجمع في عرضها للمادة على شقين نظري وتطبيقي، ليتم من خلالهما إدراك أهمية المحكي الشعبي ببعديه الحقيقي والمتخيل.

2. المحكي الشعبي وأحداث الثورة التحريرية:

ينتمي المحكي الشعبي المتعلق بأحداث الثورة التحريرية إلى ما يُعرف بالتاريخ الشفوي، باعتباره مادة قيِّمة، يمكن عبرها التعرف على كثير من الأخبار والمعلومات عن تلك الفترة، ويطلق الباحث عبد الله العروي على التاريخ الشفوي تسمية التاريخ الراكد([1])، وصفة الركود لا تعني عدم نفعيته، إنما تحيل إلى أهميته، وإلى ما يحويه من كنوز، وأن مهمة

الدارسين والباحثين تحريك هذا التاريخ الراكد والمغيب لاكتشاف قيم تاريخية واجتماعية وثقافية ونفسية.

ولا تقل قيمة التاريخ الشفوي عن قيمة التاريخ المدون؛ لأن هذا الأخير لا يأخذ مادته إلا من أرضية الشفوي، لذا يولي الدارسون اليوم للمحكيات أهمية قصوى، ويحرصون على تلقفها وهي طازجة، أي الالتفات إليها في لحظتها الراهنة، بخاصة تلك المحكيات التي ترتبط بالحروب والأزمات، ويطلق على دراساتهم بدراسات الصدمة، ودافعهم في ذلك هو فكرة أن التاريخ الرسمي عادة يكتبه المنتصرون، ويخضعونه لمقاسهم الخاص، ما يغيب تفاصيل كثيرة عن التأريخ، ومع مرور الوقت تُنسى وتتلاشى، فالتاريخ الرسمي حسبهم يؤرخ للأحداث الكبرى ويحفظ أسماء أشخاص محددين، ويغيب تفاصيل رغم صغرها أو محدودية تأثيرها إلا أنها تعتبر مهمة(2)، ولذلك يأتي الاهتمام بالمحكيات الشعبية الشفوية التي ارتبطت بالثورة، لإعادة الاعتبار لتلك التفاصيل المهمشة من نضال الشعب الجزائري، وللنبش في يوميات الجزائري البسيط الذي عانى كثيرا من ويلات الاستعمار، وهو أيضا تأريخ لفئة واسعة من أفراد الشعب الجزائري الذين همشهم التاريخ الرسمي، ولم يغفل عنهم التاريخ الشفوي الراكد.

ونركز في هذه المداخلة على نموذج من المحكي الرائج في منطقة جمورة، الذي يرتبط بأحداث تاريخية حقيقية، إلا أن الذاكرة الشعبية طوعت تلك الأحداث ضمن محكي شعبي، يضفي عليها جوانب تتجاوز الواقع إلى الخيال، وترسم فضاء مختلفا، لكنه لا يخرج عن نطاق الذات الجمعية التي تكشف عبر محكياتها عن نفسها تاريخيا واجتماعيا وثقافيا ونفسيا، والنموذج المختار يتعلق بشخصية ثورية، وهي شخصية المجاهد أحمد زرواق، وكيف تحول في المحكي الشعبي إلى بطل خارق للعادة، وبتتبع هذا النموذج يمكننا استنباط مجموعة من الأبعاد التي تظهر لنا جوانب قيمة حول دور المحكي في حياة الناس، وحول أهميته التاريخية والنفسية والثقافية والاجتماعية، ذلك أن أي مأثور شعبي "يحوي ما من شأنه أن يفسر أكثر من ظاهرة من ظواهر الاجتماع والتاريخ"(3) والمقصود بالتاريخ هنا "الرؤية الشعبية للوقائع والأحداث للماضي والحاضر، ولما قد يكون في المستقبل، أي التاريخ الشعبي، وليس التاريخ الرسمي المسجل من قبل مؤرخين تخصصوا في رسم الحدث."(4)،

ونعرض فيما يأتي طبيعة الحدث الحقيقي بتفاصيله وحركته، ثم نقدم الحدث وتحولاته عبر المحكي الشعبي.

1.2 الحدث الحقيقي:

يرتبط الحدث باشتباك حدث عام 1960 بمنطقة بني سويك الواقعة في مدخل جمورة، وهذا الاشتباك كان قد سبقه اشتباك أول بسبب كمين نصبه جنود الاستعمار لبعض المجاهدين، وكان المجاهد أحمد زرواق قادما إلى جمورة لتسليم مبلغ مالي لمسؤول المكتب التجاري، بعد اجتماع حضره في منطقة تارقة تحت قيادة سي محمد الشريف عبد السلام، ومعه مجموعة من المجاهدين من بينهم: الحسين بطروش، وعمر دحماني، والمرض بن عطية، والسبتي بومعراف، وعند وصوله إلى جمورة وقت المغرب سمع إطلاق الرصاص، وعلم بعد ذلك أن بعض إخوانه من المجاهدين قد وقعوا في الكمين، فسعى إلى إيصال المبلغ، وفي الصباح عرج المجاهد أحمد زرواق، وبقية المجاهدين إلى منطقة بني سويك للاستعلام عن وضعية رفقائهم، ولكنهم وجدوا أنفسهم محاصرين بدورهم من جنود الاستعمار، وبدأ الاشتباك بعد إطلاق أحد المجاهدين الرصاص نحو جندي كان قريبا منهم فأرداه قتيلا، واستمر تبادل إطلاق النار من الساعة التاسعة صباحا حتى منتصف الليل، بعدما تدخل الاستعمار بأسلحة ثقيلة واستعمال الطائرة، وهو ما أصاب المجاهد بحروق على مستوى الوجه واليدين، وتمكن الفرنسيون من القبض على رفقائه بعد استعمال الأضواء الكاشفة، والإتيان بشاحنتين محملتين بالأهالي لاستعمالهم دروعا بشرية، أما المجاهد أحمد زرواق فقد تمكن من التسلل نحو أحد المراكز القريبة، وهو في حالة حرجة جدا، ثم أكمل سيره نحو جمورة وبالضبط إلى دشرة الكدية، وهناك تم استقباله من السكان الذين خبأوه في أحد المنازل إلى حين توقف السلطات الاستعمارية عن التفتيش، ومن ثم تم التوجه به إلى قديلة نحو المسبل لخضر مرج، ثم إلى منطقة بني فرح حيث تلقى العلاج([5]).

2.2 المحكي الشعبي:

لا يهتم المحكي الشعبي القائم على هذا الحدث بأسباب الاشتباك وتفاصيل المواجهة، إنما يركز على شخصية المجاهد أحمد زرواق وكيف تمكن من النجاة، ومواجهة الحصار الفرنسي، وقطعه مسافة طويلة من بني سويك حتى منطقة قديلة، وهو في حالة حرجة، كما يركز المحكي على كيفية استقباله والعناية به، ويرصد الراوي الأول حركة المجاهد أحمد زرواق وبعض من رفاقه من منطقة الطارف ثم قديلة، حيث مروا بمنزل المجاهد عبد الله عيطور لأخذ قسط من الراحة، ثم التوجه نحو بني سويك متخذين وادي عبدي مسلكا لهم، ويحيل الراوي إلى كيفية مداهمة الاستعمار للمجاهدين، مبينا اختلاف الآراء حول ذلك، ويركز على كيفية تصرف المجاهد أحمد زرواق باعتباره القائد، إذ طلب من رفاقه التسلل نحو الجبل، ثم عدم التحرك إلى أن يحل الظلام، وعندها يمكنهم مغافلة العدو، وفي الليل بدأ الاشتباك الفعلي، وأصيب أحمد زرواق بحروق عميقة بعد مهاجمتهم بعدد معتبر من الطائرات حسب الراوي، وتمكن العدو من القبض على المجموعة، أما القائد فتمكن من النجاة، وهو محمل بوثائق سرية، وقد أمضى بعض الليل ماكثا في رأس نخلة خوفا من مهاجمة الضباع، ثم أكمل سيره في جنح الظلام حتى وصل إلى منطقة شارطاش بقديلة حيث منزل المجاهد عبد الله عيطور، وهناك تلقى العلاج على يد زوجة صاحب المنزل الذي كان غائبا في مهمة، وقد أوصاها بالمجاهدين خيرا، فاستقبلت المجاهد الجريح، وخبأته في مكان مموه قريب من المنزل، كان يتخذه زوجها مجلسا لاجتماع المجاهدين، فاعتنت به أياما عدة إلى حين عودة زوجها، الذي تسلم من المجاهد رسالة شفوية إلى أحد القادة كي يوفر له مكانا آخر سريا ينتقل إليه. (6)

أما الراوي الثاني فله محكي مختلف تماما، إذ إنه لا يهتم بما حدث في الاشتباك، بل يكتفي بالحكي عن كيفية إخفاء المجاهد أحمد زرواق عن أعين العدو، ثم إرساله إلى مكان آمن، إذ يروي أن المجاهد جلبه بعض المسبلين في حالة يرثى لها إلى منزل المجاهد لخضر مرج بواد ولاد إبراهيم بقديلة، وأنه تم استقباله خفية لبضع ساعات فقط بسبب مراقبة العدو لمنزل المسبل، ثم نقله إلى مركز آخر بعد مداهمة العدو للمكان، إذ قام المجاهد لخضر مرج بإنزاله إلى مطمور، وتغطيته، وإحاطة المكان ببذور الفلفل الحار، وكان المجاهد صاحب المنزل قد أحس أن نهايته ونهاية رفيقه قد اقتربت بعد مداهمة العدو للمنزل، ولكن الفلفل كان له

دور مهم في إعاقة الكلاب عن تحديد مكانه، فغادر العدو دون اكتشاف أمر المجاهد الجريح، ومن ثم تم الإسراع بنقله إلى مركز آخر أكثر أمانا.([7])

3. الأبعاد الموضوعية للمحكي الشعبي:

إن المقارنة بين الرواية الأولى للحدث الحقيقي والرواية الثانية، تكشف للقارئ مدى الاختلاف سواء من ناحية حركة المجاهد أحمد زرواق، والأمكنة التي تنقل عبرها، أو من خلال الأشخاص الذين تفاعلوا معه، أو زمن الحدث وطبيعته، ورغم هذا التباين فإن لهذا المحكي نقاطا مشتركة، وله قيمة مهمة لا يمكن التغاضي عنها؛ لأنه جزء من الثقافة الشعبية التي "تعكس النواحي المتنوعة للحياة الاجتماعية التي تظهر على مستوى إقليمي"([8]))، ونرصد في ما يأتي مجموعة من الأبعاد التي يمكن عبرها تمثل قيمة المحكي، وتجلية بعض نقاط الاختلاف فيه وبيان أسبابها.

3. 1 الأبعاد التاريخية:

تتشكل الأحداث في المحكي أحداثا متداخلة ومبتورة، ولا تفي بالغرض العلمي التاريخي، بخاصة أن البعد التخييلي في الرواية الأولى يبعد الأحداث عن واقعيتها؛ ولكن المحكي يبقى مصدرا مهما بحفظه للواقعة، وحفظ بعض الأسماء المتعلقة بها، وهو ما يبين قيمته بحفظه لجزء مهم من الذاكرة عن طريق بنائها عبر الحكاية، ورغم البعد الغرائبي فيه، لا يمكن إلا أن نطمئن له؛ لأنه يحيلنا إلى حدث حقيقي، يجعله أرضية للانطلاق نحو تأسيس بحث علمي تاريخي رصين، "فالتاريخ المحفوظ بدأ بالفعل كرواية مخزونة في الصدور."([9])

3. 2 الأبعاد الاجتماعية:

لا تقل أهمية المحكي الاجتماعية عن الأهمية التاريخية، ذلك أنه يكشف لنا تفاصيل مهمة عن طبيعة العلاقات التي كانت سائدة بين الجزائريين، وطبيعة الظروف والمعاناة التي كانوا يعيشونها في ظل الاستعمار، كما يحيل إلى أساليب المقاومة التي كان الناس ينتهجونها ولو بأبسط الوسائل، فعلى مستوى العلاقات نلمس تكاتفا بين أفراد الطبقة الشعبية، وانسجاما على مستوى المواقف التي يتخذونها من حيث دعم المجاهدين، والاستعداد للتضحية من أجلهم، والتي هي في عمقها تضحية من أجل الوطن، والمجتمع لا يتسنى مجتمعا إلا بعد أن يباشر الناس "بحل مشكلاتهم المشتركة"([10])، لذلك نلمس في شق آخر

حرص المجاهدين على إتمام مهامهم على أكمل وجه، أما على مستوى الظروف والمعاناة، فالمحكي يشير إلى طبيعة الحياة التي كان يتجرعها الجزائريون، وأشكال الظلم والهوان التي كانوا يتعرضون لها، ما يجعل أساليب المقاومة عندهم تتنوع، كلٌّ بمقدرته ووضعه.

3. 3 الأبعاد النفسية:

يمكن أن نتبين طبيعة الحالات النفسية التي كانت ماثلة من خلال المحكي، وهي حالات تنبئ عن وضع الرواة أولا، ووضع الشخصية النموذج (أحمد زرواق) ثانيا، حيث يبدو الرواة معتزين ومفتخرين كونهم قدموا إسهاما في تاريخ الثورة، وكونهم كانوا سببا في نجاة مجاهد من الموت أو السجن، وهو اعتزاز يمتد حتى إلى الرواية الحقيقية للمجاهد نفسه، وهو ما يمنح للمحكي أهمية من ناحية تأريخه للحالات النفسية التي كان عليها الناس أثناء وقوع الحدث، وما بعده، كما يمكننا تلمس الجانب النفسي المتعلق بالشخصية النموذج، وهي تكابد مشاعر الخوف من الوقوع في يد العدو قبل إتمام المهمة، والسعي إلى تحمل المسؤولية، ولو كلفها ذلك حياتها، وهذه الوحدة النفسية التي نلمسها في المحكي إنما تحيل إلى تماسك المجتمع في زمن الثورة، وانسجامه من نواح عدة؛ لأن المجتمع بعامة "يقوم في حقيقة كون أفراده (...) ينتمون إلى وحدة معينة، ويوجهونها ضد مجموعة أخرى لا ينتمون إليها"([11]) .

3. 4 الأبعاد الثقافية:

تظهر من خلال البعد الغرائبي الذي تمثله الرواة وهم يتداولون المحكي، إذ يظهر من خلال ارتباطه بالشخصية النموذج، التي تتشكل فيها صورة البطل الخارق للعادة، كما يظهر الجانب الثقافي في فكرة التقديس التي أحيطت بها شخصية المجاهد، ومنحها صورة مشرقة في مقابل صورة العدو الفاشل الذي لم يستطع القبض على القائد أحمد زرواق، وتدخل فكرة التقديس ضمن مبدأ التفكير الجمعي، الذي لا يتحقق إلا عبر ثقافة معينة، أي "التفكير من خلال منظومة مرجعية، تتشكل إحداثياتها الأساسية من محددات هذه الثقافة ومكوناتها، وفي مقدمتها الموروث الثقافي، والمحيط الاجتماعي، والنظرة إلى المستقبل، بل والنظرة إلى العالم، إلى الكون، إلى الإنسان."([12]).

4. المحكي والغرائبية وفكرة التقديس (أسئلة الوجود وأبنية الترسب):

إن مقارنة المحكي بالأحداث الحقيقية تكشف لنا فوارق عدة في طبيعة الأحداث، وحدود الأمكنة التي جرت فيها، والتي تحركت فيها شخصية المجاهد أحمد زرواق، وتلك الفوارق هي التي تمثل مفاتيح القراءة، وبابا لطرح الأسئلة التي تقودنا إلى فهم طبيعة الذات الجمعية في مرحلة حرجة هي مرحلة الثورة التحريرية، وأيضا طبيعة الترسبات النفسية والثقافية الكامنة فيها التي نكتشفها عبر محكياتها.

فمن الناحية التاريخية نجد الذات الجمعية متمسكة بحكي تاريخها من جهة، والتطلع إلى غدها من جهة أخرى، إذ إن الحكي هو وسيلة للاستمرار الوجودي، يحفظ لها كينونتها وحركتها وهي تقاوم الاستعمار، كما أنه يمنحها القوة لمواصلة الجهاد، تلك القوة التي تسعى لاستنباتها من خلال نموذج البطولة الذي تصبغه على شخصية المجاهد، بمنحه أفعالا خارقة تجعله نموذجا مقتدرا على طمأنة الذات الجمعية، وبث الأمل فيها لتحقيق الانتصار، وهو ما يبين أهمية المحكي في تلك الفترة، إذ لم يكن حافظا للفعل الإنساني فقط، بل محركا له من أجل تحقيق التغيير، وبذلك يصبح للمحكي دور آخر، وهو تحقيق تماسك المجتمع، فالحدث لا يمر مرور الكرام، بل تتناقله الألسنة، وتبث فيه من روح الغرائبية ما يجعله قابلا لتحقيق المتعة وتحفيز الذات على المقاومة، وتمتين العلاقة بين الناس والمجاهدين، ويرى علماء الأنثربولوجيا أن البطولة هي تجسيم للوعي الجماعي أو تعبير عن " النظام الذي تقوم عليه حياة الجماعة، ولذلك جردوا البطل من كل معنى ذاتي، وأصبح البطل تعبيرا عن الجماعة أو الوظيفة الاجتماعية"([13])، وبما أن البطل في هذا النوع من المحكي ليس شخصا متخيلا بل "حقيقة مادية وموضوعية مرتبطة بالزمان والمكان، وليس وهما (...) وليس استيهاما"([14]) فإن قيمته البطولية تصير أعمق؛ لأن الجانب الواقعي الحقيقي يضفي بعدا آخر إلى الجانب التخييلي، الذي تكون رؤيته للبطل رؤية "وجدانية شعبية (...) ذلك أن فنون الحكي الشعبي بشكل عام تعد نتاجا تاريخيا مستمرا، سهل من ديمومته واستمراره حاجة الإنسان الفطرية لرواية القصص وسماعها"([15])، وتشكل الظروف التي قيل فيها المحكي أو نشأ، حافزا كبيرا على تأسيس المحكي وفق بعد

غرائبي خاص، لا يسعى إلى استغفال السامع، ولا إلى إثارة دهشته، بقدر ما هو محاولة لدفعه للإعجاب بقيمة البطل وقدراته، كما أن تمسك الرواة بتداول هذا النوع من المحكي، هو تمسك بالوجود الذاتي وهو في لحظة مقاومة ضد الاستلاب والتغييب، وهذه المقاومة لا ترتبط فقط بمواجهة الاستعمار، بل بمواجهة التاريخ الرسمي أيضا الذي يحفظ عادة أسماء الكبار من الشخصيات، والأحداث الكبرى، ويغيب أو لا يلتفت إلى ما هو أصغر رغم قيمته، ولذلك يتشكل المحكي رد فعل ضد التغييب، ويحفظ أدق التفاصيل، ويؤرخ لما هو شعبي مقابل ما هو رسمي، ذلك أن المحكي "ينشد ما يجب أن يكون والثاني يفتش عما كان([16])".

يمكننا أن نتبين أيضا من المحكي الشعبي الأبعاد النفسية والثقافية التي وسمت الذات الجزائرية، وهي تقوم بفعل المقاومة والمواجهة والدفاع عن النفس، إذ يرتبط الحكي عندها بسمات خاصة، الغاية منها الإعلاء من شأن الذات وما يتعلق بها، ومنحها طابعا تقديسيا يضفي عليها إمكانيات خارقة، وتشترك تلك المحكيات في موضوعات تتعلق بوصف شخصيات نضالية، أو معارك، أو أماكن حدثت فيها اشتباكات، وجميعها تتلون باللون الغرائبي الذي يضفي أبعادا غير عادية عليها، وهذا الأمر مرتبط من ناحية بعملية الحكي ذاتها التي تحتاج إلى لفت انتباه المتلقي وإثارة إعجابه، ما يجعل البعد الغرائبي ضرورة لا بد منها، ومن ناحية يمثل مقاومة للاستلاب، والسعي إلى الاعتزاز بالذات الجمعية، وتثمين فعل المقاومة؛ لأن المحكي الشعبي في عمقه هو نسيج لحقيقة ما (...) ومرآة للعصر تبين أفكار الأمم وعاداتها([17])، كما تحفظ وجدانها من الانتهاكات، وأيضا تؤرخ لأحوالها النفسية في ظل ظروف قاهرة ومعاناة قاتلة، وقد يتساءل أي دارس عن جدوى الاحتكام إلى الغرائبية في الإخبار عن أحداث حقيقية، وبالنظر إلى واقع الفرد الجزائري في زمن الثورة بخاصة من الناحية التعليمية، نجد أن أغلب الجزائريين كانوا يعانون من الأمية الناتجة عن سياسة الاستعمار التجهيلية، وهو ما جعل الفرد الجزائري لا يحتكم لوعي علمي ونقدي في سرد الأحداث بل يميل إلى الرؤية الغرائبية، ولو أنها في عمقها رؤية ثورية متجاوزة لرقابة السلطة الاستعمارية، بممارستها لفعل الحكي وحفظ التاريخ ومقاومة النسيان؛ ويرجع "المصدر الأول والأخير لفكرة البطولة (...) إلى إعجاب الشعب بفكرة البطل، فالحياة بجوانبها

المختلفة لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بفضل عناصر بطولية تغلبت على الشر، وتغلبت على عناصر الضعف والنقص حتى شارفت الكمال([18])".

إن غرائبية المحكي نافذة لفهم مجريات حكي الحدث التاريخي، الذي يكشف بعمق ترسبات نفسية وثقافية في ذهنية الفرد الجزائري زمن الثورة، وهي ترسبات يطلق عليها محمد عابد الجابري مصطلح اللاشعور المعرفي الذي يمثل "جملة المفاهيم والتصورات والأنشطة الذهنية التي تحدد نظرة الإنسان (...) إلى الكون والإنسان والمجتمع والتاريخ"([19]) وتتعلق في عمقها بما سماه الزمن الثقافي، ذلك أن لكل أمة زمنها الثقافي الخاص الذي يكون مختلفا عن الزمن الطبيعي، وهو مثله "مثل زمن اللاشعور، زمن متداخل متموج يمتد على شكل لولبي، الشيء الذي يجعل مراحل ثقافية مختلفة تتعايش في نفس الفكر، وبالتالي في نفس البنية العقلية"([20])، التي تتحرك بسكونيتها الفكرية ضمن مراحل زمنية عديدة، وهو أمر غير صحي بالنسبة للشعوب التي لم تتخلص من حصار الأفكار التقديسية، ولكنها في الآن نفسه تكشف الأسباب والعوامل التي أبقت على تلك الأفكار سائدة، ما يمكن الدارس من متابعة تطورات المجتمع عبر محكياته، وكيف حول وعيه الشعبي إلى وعي ممنهج بقيمة الحكي ودوره وأهميته في حاضره وما بعده.

5. خاتمة:

تتجلى قيمة المحكي الشعبي في حفظه لجزء كبير من الذاكرة التاريخية الجزائرية، وبفضله وجد التاريخ المدون أرضية خصبة لمنهجة التاريخ الرسمي للجزائر، كما أن قيمة المحكي لا ترتبط بالجانب التاريخي فحسب، بل تمتد إلى ما هو اجتماعي ونفسي وثقافي، إذ يمد الدارس بمعلومات قيمة عن طبيعة المجتمع الذي نشأ فيه وعبر عن ظروفه وأشكال معيشته، كما يحفل بأحواله النفسية وردات الفعل الجمعية تجاه أزمات الحياة، وطبيعة الأفكار والمرجعيات الثقافية المتحكمة في الذهنيات، وهو ما أبان عنه المحكي المختار في هذه المداخلة، الذي بقي متداولا على ألسنة العامة، ما يكشف عن قيمته بغض النظر عن واقعيته أو تخييليته، ويمكن عبره أن نستخلص ما يأتي:

- تداخل الأحداث في المحكي الشعبي، وانقطاع بعضها، واختلاف الرواية من راو لآخر، لا يحجب قيمته التاريخية من حيث إحالته إلى وقائع حقيقية، وحفظه لأسماء المجاهدين، والمسبلين، ومن كان لهم دور في تمتين فعل الثورة ولو بعمل بسيط.
- المحكي الشعبي المرتبط بأحداث حقيقية، هو مادة خصبة للمؤرخ ليكتشف من خلاله حقائق تاريخية مهمة عبر منظور علمي ممنهج.
- استمرارية المحكي إلى أزمنة لاحقة تدل على أهميته، وعلى تمسك المجتمع بذاكرته الشعبية التي استعملها في أوانها لمقاومة الاستعمار، وهو يستعملها اليوم لمواجهة التاريخ الرسمي الذي لا يلتفت إلى جزء مهم من التضحيات، ولا يؤرخ إلا للأحداث الكبرى.
- تتجلى قيمة المحكي اجتماعيا في إبراز تكافل المجتمع الجزائري، وتماسك أفراده وانسجامهم من حيث مقاومة الاستعمار بمختلف الوسائل.
- يبرز المحكي الشعبي اعتزاز المجتمع بالتضحيات الجسام التي كان يقدمها المجاهدون، عبر فكرة التقديس وإصباغ البعد الغرائبي على شخصيات المجاهدين.
- حاجة الجزائري زمن الثورة إلى الأمل والدعم المعنوي من أجل مواجهة الاستعمار، جعله يشكل صورة المجاهد في محكياته عبر بعد غرائبي، يمنح للشخصية قوة معنوية تنعكس في النفوس وتحثهم على تفعيل المقاومة.

الهوامش والإحالات:

1- ينظر، العروي ، عبد الله، (1997)، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 4، ص 38 وما بعدها.

2- ينظر، الصدة، هدى، التاريخ الشفوي والتاريخ الرسمي، أيهما يخبرنا بالحقيقة؟، موقع قراءات http://qira2at.com

3- أيوب، عبد الرحمن، (2014)، الفولكلوري العربي في حقبة ما بعد الاستعمار، ضمن كتاب جماعي (ما بعد الاستعمار والقومية في المغرب العربي_ التاريخ والثقافة والسياسة)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، ص 63.

4- المرجع نفسه: ص 63.

5- القطعة، إسماعيل، (2011)، المجاهد الحاج أحمد زرواق بن العدوي (من واقع الثورة الجزائرية)، دار النشر المؤسسة الصحفية بالمسيلة، الجزائر، ط2، ص 60، 66، 68، 69، 70، 71.

6- الراوي الأول: مجاهدة من منطقة قديلة.

7- الرواي الثاني: قريبة للمجاهد لخضر مرج.

8- أيوب، عبد الرحمن: الفولكلوري في حقبة ما بعد الاستعمار، ص 63.

9- العروي، عبد الله، (2005)، مفهوم التاريخ (الألفاظ والمذاهب، المفاهيم والأصول)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط4، ص 97.

10- ل. شابيرو، هاري، (1978)، الإنسان والحضارة والمجتمع، تر: عبد الكريم محفوض، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، ص 629.

11- ل. شابيرو، هاري، الإنسان والحضارة والمجتمع، ص 630.

12- الجابري، محمد عابد، (2009)، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 10، ص 13.

13- بنشاوي، هشام، (2017 السنة العاشرة)، تجليات البطولة في الأدب الشعبي، مجلة الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر، البحرين، العدد 36، ص 50.

14- المرجع نفسه: ص 53.

15- المرجع نفسه: ص 53.

16- المرجع نفسه: ص 53.

17- ينظر، صالح، هويدا، (2015)، الهامش الاجتماعي في الأدب (قراءة سوسيو ثقافية)، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د. ط، ص 148.

18- بنشاوي، هشام، تجليات البطولة في الأدب الشعبي، ص 54.

19- الجابري، محمد عابد، تكوين العقل العربي، ص 41.

20- المرجع نفسه: ص 41.